

أَهْرَقْنَا الْعَامَةَ

كما يكشف عنها سلوكنا

الساعة الخامسة من الصباح والفصل شتاء والبرد قارس ولا يزال الظلام يحيم على المدينة ولكن سكان المنازل في أحد الشوارع يستيقظون لأن بوقا قد أخذ يزعم في الظلام كالحنون. وذلك لكي يوقظ أحد الراغبين في السفر وينبسه حتى يتبها للتزول حيث يركب "الأتومبيل ويدرك القطار الذي سيفادر المحطة قبل الساعة السادسة بدقائق .

من أجل شخص واحد يريد إدراك القطار يجب أن يزعم جميع السكان ويوقظوا في فراشهم ؛ ولعل منهم المريض أو المتأخر في نومه الذي يحتاج إلى زيادة ساعة من النوم ، وسائق الأتومبيل لا يكلف نفسه مشقة الصعود إلى مسكن هذا المسافر وإيقاظه بطرق الباب أو دق الجرس ، بل يستعين بإزجاج الشارع كله وهو قاعد في مقعده الدفء الوثير بضغط زر البوق فيخرج صوته المنكر للإزعاج والإيلام .

فأي أخلاق هذه ؟ رجل مأجور لكي ينبه مسافرا ويوقظه ويحمله إلى المحطة فلا يبالي إعنات شارع بأكمله ، كأن سكانه بعض الحوام أو الحشرات التي لا تستحق أية مراعاة أو احترام ! ولو أن مثل هذا السائق وجد تعنيفا وتبكيتا ممن استأجره أو ممن أزعجهم من عشرات السكان لكف عن هذا التصرف وسلك سلوكا اجتماعيا يقوم على احترام المجتمع . ولكنه لا يجد هذا التبكيت أو التعنيف ، لأن الجمهور يحمل حقوقه ويسير على مبدأ "مهلش" ، وكل واحد من هؤلاء الذين أزعجهم البوق في فراشه يؤمل في قرب النهاية لهذا الإزعاج وأنه سيستأنف نومه . ثم هذا السواق أناني يريد راحته ولا يبالي راحة غيره بل هو سيزداد أنانية بسكوت السكان على ضوضائه ، ولعله يجد إحساسه حتى لا يظن أنه يزعم أحدا بهذا السلوك ويمضي فيه خطة عامة كلما أراد تنبيه أحد الزبائن حتى لا ينةظر طويلا .

نعرف رجلا أمريكيا غادر القاهرة وحاد إلى أمريكا بحجة أن الضوضاء كثيرة مزعجة في القاهرة ، وأن نيويورك التي يبلغ سكانها ستة أضعاف السكان في القاهرة ليس فيها مثل هذه الضوضاء ، وقد يكون الرجل قد بالغ في الوصف ، ولكن من منا يمكنه أن ينكر عظم الضوضاء في القاهرة .

لقد احتاجت المحافظة أن تمنع بالأمر استعمال بوق الكلاكس في ساعات معينة بالليل في القاهرة . وهي لم تكن في حاجة الى هذا الأمر لولا أنها وجدت أن البوق يستعمل في غير وقته و بلا ضرورة توجهه . فهنا تأييد لما ادعاه ذلك الامر لكي بأن الضوضاء في القاهرة أكثر مما ينبغي . وقد منعت بعض المحافظات نداء الباعة الجوالين فيما بين الساعة الثانية والرابعة بعد الظهر حتى يمكن الراعبين في القليلة أن يحدوها . ولكن حتى هذا الأمر لا ينفذ لأنه لا يجد التأييد من الجمهور . فإن البائع يتسلل الى الأزقة النائية ويصيح ويزعق ملء حنجرته فلا يجد من يعترض عليه . ولا يمكن المحافظات أن تعين شرطيا لكل زقاق كي ينفذ الأوامر والقوانين . بل يجب أن يجد الشرطة التأييد المتأخر من الجمهور .

ومثل آخر من أخلاقنا التي تبدو في تصرفنا وسلوكنا في الشارع ، فإن مدينة كبيرة مثل القاهرة قد أصبح من الخطر الكبير على السابلة فيها أن يسيروا على غير المكان المعد لسيرهم ، وهذا المكان هو رصيف الشارع ، ولكن من مسا لم يضطر الى ترك الرصيف والسير على الأرض المخصصة للاتومبيل والترام وسائر العربات الخطرة لأن الرصيف قد شغله باعة الفواكه والخردوات والجرائد والحلويات .

ويستطيع القارئ أن يبادر الى القول بأن الشرطة يهملون هؤلاء الباعة ويتركونهم على الرصيف ، وقد يكون هناك بعض الإهمال ، ولكن لا يمكن الشرطة أن يكونوا على أرصفة الشوارع في كل وقت ويجب على الجمهور أن يعاونهم في تطهيرها من الباعة والمتسككين ، والمستنصر في النهاية بهذا الإهمال هو الجمهور ، فيجب لذلك أن يتنبه أفرادها الى واجب المعاونة للحكومة ولو على الأقل بتنبية السلطة المختصة . وفي مثل هذه الأيام التي تطفأ فيها المصابيح يعود من الخطر العظيم أن يسير أحد على غير الرصيف لازدحام الباعة عليه ، لان العربات تظل مصابيحها فتسوء الرؤية وتحدث الاصطدامات التي قد تكون مميتة . ونعرف أحد الشوارع قد استغل أرصفته الباعة وهو مع ذلك شارع مزدحم بالأتومبيلات والترام لا تنقطع فيه المصادمات بين السابلة وبين الباعة . وهناك ألوان من التحكك التي يحدثها الزحام وتقع السيدات فريستها ...

فيجب على الجمهور أن يستعمل حقوقه ويطالب الباعة بترك الأرصفة . فإن لم يطيعوا تجب الشكوى السريعة الى السلطة المختصة ، ولن نستطيع أن نحقق الهدوء والنظام ما لم نعاون الشرطة في تنفيذ القوانين واللوائح . وهذه القوانين واللوائح مهما كثر عددها ومهما روعيت فيها الدقة والإحاطة لن تجدى شيئا عظيما ولن تحو القوضى المتمكنة في شوارعنا ما لم يعرف الجمهور حقوقه ويطلب بتنفيذها . ونحن أفراد الجمهور — قبل الشرطة — مسئولون عن تنفيذها وعن صياح الباعة وعبث السواقين وازدحام الفاكهة والخردواتية على الأرصفة ، وقليل من الشدة أو الصرامة في أخلاقنا كفيلا بإصلاح هذه الحال .

وأقل خطرا من هذه المخالفات ولكن أفظم في الذوق والكياسة تلك الصفات التي ترتبها في مجتمعاتنا بلا مبالاة ، فقد فتحت الحكومة أبواب الأوبرا للجمهور ، وخفضت أثمان التذاكر إلى أدنى حد ، وليست الأوبرا قهوة عامة ولا هي حديقة مكشوفة ، وإنما هي دار للفن الجميل قد أثنت بفائز الأناث ، فلا أقل من أن يري الجمهور هذه الظروف جميعها ويعاملها بما تستحق من رعاية وإكرام ، ولكن كم من مرة زانا قاعدين متفرجين وإلى جانبنا رجل أو سيدة وهما لا يكفان عن أكل اللب ، وقشر اللب يترآكم تحت الأرجل ! وهل نتظر من موظفي الأوبرا أن يتقدموا إلينا بالنصائح وأن يشرحوا لنا صعوبة الجمع بين تذوق الفن وتطعم اللب ؟ أليس لنا من التمييز السليم ما يبين لنا هذه الحقيقة البسيطة ؟

وهناك في دار الأوبرا أيضا من يسقط التكليف ، فإذا أحس حرا في اللوج عمد إلى التخفف ونزع بعض ملابسه كأنه في بيته ، ونحن إنما نلبس ملابسنا للجمهور وليس لنا ، ولكل جمهور أسلوبه أو طرازه في اللباس لا يمكن الفرد أن يشذ عنه إلا في حدود معينة ، والدور المسرحية في جميع أنحاء العالم طراز من السلوك تقتضى المتفرجين اتباعه ، وقد يكون هذا الطراز بعيدا عنا في طورنا الحاضر، ولكن لا أقل من أن تكف عن أكل اللب ولا أقل من أن تكون بزننا كاملة لا تنقصها الجاكينة مثلا .

وهناك بعد كل هذا إجماع يتجاوز ما ذكرنا من إهمال ، وسكوت الجمهور عليه هو بمثابة الاشتراك فيه ، نعى ذلك التحكك الذي يقع من الشبان بالفتيات وقت الزحام في الأتوبيس أو في الترام ، ونعى أولئك الأوغاد الذين يشربون المقاعد ويتلفونها للعبث والشر لا أكثر ، فإن أفراد الجمهور هنا يجب أن يأخذوا القانون بأيديهم ، ويكفوا المستهتر عن انتهاك الأعراض والشرير عن الأذى والإتلاف فإن السيدة أو الآنسة التي يتحكك بها شاب تعجز في العادة عن صده بالعنف الذي يليق به . لأنها نشأت في بيئة لم تعلمها الألعاب الرياضية ولم تفرس فيها روح الاستقلال وهي تنتظر في مثل هذه المصادفات معونة من الركاب . فيجب أن يكون في كل منا من النجدة والشهامة ما يصفون مثل هذه السيدة أو الآنسة .

وبغير هذا التعاون بين الحكومة والشعب لا يمكن أى رقى ولا يجدى أى قانون !